الأديان في فطريتها

(هذا فصل ترجمناه من كتاب « فلسفة الأديان » للدكتور رات)

يبدو من القلة التي ترامت إلينا أنباؤها عن المعتقدات الدينية للإنسان ما قبل التاريخ ، أن المعتقدات الدينية والممارسات المتصلة بها لا تختلف كثيراً عن الأديان والمعتقدات المألوفة اليوم في بلاد البدائيين أو آكلي لحوم البشر . فاذا قابلنا بين المعتقدات الدينية عند البدائيين الذين يتفاوتون مراتب من حيث تقدمهم وارتقائهم أمكننا أن نستعوذ على رأي عن كيفية نشأة الأديان بين الناس ، واحتفالهم بها كممارسة منفصلة عن سائر الممارسات ، ثم عن الاتجاه العام لتطورها بين أسلاف الأمم المتحضرة .

وخليق بنا أن نستهل هذا الفصل بتلخيص مراحل تطور الدين عند الأجناس الشديدة التخلف في مضمار الحضارة مما لا تزال فلول لها باقية على قيد الحياة اليوم ، وهي أجناس يفتقر رجالها إلى الذكاء وإلى النظم الاجتماعية . ومن هذا اللون ، سكان « فيداس روك »[1] في سيلان ، و« الفوجيون »[2] الذين يقطنون « تييرا دل فيجو »[3] ، وزنوج أواسط أفريقيا . ولم يتسن لنا الظفر بأنباء مفصلة عن هذه القبائل في الأمور التي تستأثر بأكبر عنايتنا كطلاب علم « الأديان المقارنة » ، غير أن من الخير البدء بجنس آخر لا يزال في طور من الرقي سابق لنشوء الأديان وصيرورتها جزءاً منفصلاً من نشاط الانسان ، لها منشآت ومعابد ذات طابع خاص .

وكما أن علماء الأحياء يرون أن من الفطنة استهلال بحوثهم بتقصي التطور الحيواني مبتدئين من الأميبا التي لم تتميز فيها وظائف الحياة كالنفس والدورة الدموية والتمثيل الغذائي والتبرز والتناسل والحركة ، لأنها خلية واحدة بسيطة ، كذلك نرى من الحكمة لطلاب علم الأديان المقارن أن يبدأوا بالشعوب التي تمارس الأديان المندمجة ، أعني الأديان التي ما برحت جزءاً متداخلاً مع أوجه نشاطها الأخرى . وتلك هي في الواقع حالة الدين

(1) Veddaka Rock (2) Feugians (3) Tierra del Fuego

عند بعض قطّان استراليا ، وهذا هو السبب الذي يحدونا الى استهلال هذا الفصل بالحديث عن الاستراليين .

وثمة أسباب أربعة أخرى تجعل لسكان استراليا الجلف شأناً عند المشتغلين في درس الأديان يعلو على سائر الأجناس البدائية الباقية حتى الآن على قيد الحياة ، والأسباب هي :

أولاً — يبدو أنهم أدنى الأجناس الفطرية من حيث الارتقاء ، كما أن لدينا تقارير وافية موثوقاً بها عن دينهم . فقد أجرى الأستاذان سبنسر وجلين[1] والأستاذ هويت[2] بحوثاً حسنة الاستقصاء والتدقيق تدلّ على جلد ومثابرة ، وأكد صحتها من بعدهم الأستاذ سترهلو[3] وسواه .

ثانياً — احتلت هذه الأجناس قارّة بأسرها ، وفي وسعنا بلا ريب أن نطمئن إلى النتائج التي نظفر بها عن الأجناس الاسترالية أكثر من ثقتنا بالأجناس القليلة العدد المنعزلة عزلاً نسبياً .

ثالثاً — لم يتح لهذه الأجناس أن تتصل بأجناس أخرى إلاّ في دهر قريب . وقد استطاع الأستاذان سبنسر وجلين أن ينقلا إلينا الدين الاسترالي في نقاوته الفطرية قبل أن يتأثر بالآراء التي حملها المبشرون والتجار .

رابعاً — وهو سبب له شأن عملي ، أن عدداً كبيراً من النظريات الحديثة المتعلقة بأصول الدين وطبيعته يرتدّ إلى هاته الشعوب ، ولا يمكن توضيحه بغير الاشارة إليها .

* * *

لعلّ سكان استراليا المتخلفين هم أكثر الأجناس البشرية فطرة ، فما فتئت حالتهم الاقتصادية في الحضيض ، وما برحوا يأبون تربية الماشية أو قطعان الغنم ، ويصدفون عن فلاحة الأرض .

الرجال منهم يقتنصون الكنغر والنعام والحيوانات المفترسة ، ويتوسلون بعض المهارة والذكاء الى قنصها . أما النسوة ، فهنّ يتصيدن الحيوانات الصغيرة كنحل العسل والسحالي ويجمعن الخضر النامية من الحقول والبراري كيفما اتفق . ومع أن الشتاء يكون في العادة قارساً ، ومع أن لياليه تكون في الأغلب ذات سقيع ، فانهم لم يتعلموا بعد كيف تصنع الملابس للوقاية من الزمهرير ، وهم لذلك يرحبون بكل لباس يمنحهم إياه الرجال البيض .

أما الأكواخ التي يأوون اليها ، فهي فطرية إلى أقصى حد ، ولا تزيد على كونها بضعة من الأعشاب مرتبة بكيفية تحمي قاطنها من الرياح العاتية .

(1) Spencer and Gillin (2) Howitt (3) Strehlow

وفي وسع أولئك الاستراليين الجلف أن يحصوا الأرقام الخمسة الأولى (أي من ١ الى ٥) بغير عناء، ولكنهم يعتبرون النفس إذا أرادوا استيعاب ما بقي من أرقام حسابية. ولكنهم رغم هذا التخلف الحضاري الكبير، استحدثوا لأنفسهم نظاماً معقداً من «الطواطم»[1] والقواعد المتقنة التي يذعن الزوج لها.

ولعلّ مما يثير الدهشة أن نعرف أن هؤلاء القوم خلوٌ من الأفكار الدينية التي نحسبها أساسية جوهرية. فهم مثلاً لا يرددون أدعية أو صلوات، ولا يحاولون الاتصال بأي نوع كان من الأرواح أو الآلهة أو الكائنات غير المحسوسة وغير المرئية؛ وليس لهم كهنة أو معابد حتى ليقال أحياناً إن أولئك الفطريين ينتمون الى العصور السابقة لنشوء الأديان وان ثقافتهم الفطرية سبقت ظهور الدين بين الانسان.

وعلى كل حال، يصح القول إن الأديان تنتشر بينهم في حالة غير مميزة (أي أنها غير منفصلة عن أوجه نشاطهم الأخرى) لأنهم يملكون بعض الأصول الدينية التي لها نظائرها بين الأجناس التي تفوقها حضارة ورقياً.

في استراليا قبيلة تعرف باسم «أرنتا»[2] لها عادات نوجزها في ما يلي:

يمر الطفل المنتمي الى هذه القبيلة في أربعة أدوار لتدشينه. فيحل موعد الدور الأول عند بلوغ الطفل العاشرة أو الثانية عشرة من عمره، فيجتمع الرجال والنساء في منطقة متوسطة قريبة من المخيم الرئيسي، وينتقي الأطفال الذين بلغوا السن القانونية واحداً واحداً، ويطرّح الرجال بهم في الهواء، ثم يتلقونهم لدى سقوطهم، بينما تشرع النسوة في الرقص حول الجماعة، ويعددن أيديهن، ويصرخن صرخات مدوية. ثم تدهن صدور الاطفال وظهورهم بالألوان الحمراء والصفراء، ويحاطون في أثناء ذلك علماً بأن المراسم التي يجتازونها الآن إنما هي لترقيتهم الى طور الرجولة، فلا ينبغي لهم أن يلعبوا في المستقبل مع النساء أو الفتيات أو معاشرتهن في مخيماتهن، وانه يجب عليهم الانتباه من تلك اللحظة الى مخيمات الرجال، وان يتعلموا عن مرافقة النساء في أثناء تجوالهن للبحث عن الخضر وقنص الحيوانات الصغيرة كالسحالي والجرذان، وان عليهم أن يصحبوا الرجال عند خروجهم لصيد الحيوانات الكبيرة المفترسة. وبعد اتمام هذه المراسم، يتطلع الصبية الى الوقت الذي فيه يكونون قد أتموا العمليات تدشينهم. ومن ثم يحق لهم أن يقفوا على أسرار القبيلة

(١) الطوطمية Totemism — أي تقديس الحيوان أو النبات (٢) Arunta

والطور الثاني من أطوار تدشين الطفل ، هو الختان ، وتسحبه عادةً حفلات أوسع نطاقاً من سابقتها ، ويكون الطفل قد تقدَّم في العمر قليلاً .

وقد شهد السائحان البريطانيان سبنسر وجلين إحدى هذه الحفلات الطقسية ، ووصفاه بالتفصيل . فقالا : إن الطفل الذي يراد تدشينه يمسك به ثلاثة شبان يصرخون صراخاً عالياً ويحملونه إلى الموضع المعدّ إعداداً دقيقاً لإجراء المراسم ويكون بعيداً عن مرأى النساء والأطفال . والغرض الرئيسي من هذه العزلة الجنسية الجزئية هو أن يطبعوا في ذهن الصبيّ انه أوشك أن يرتقي إلى مرتبة الرجال ، وإن هذا حدٌّ فاصل بين حياته القديمة وحياته الجديدة التي يزمع الارتقاء إليها .

ومما يساعد على أن ينطبع في ذهن الصبي ، بصورة قوية ، شعور عميق بضرورة السير وفقاً لنظم القبيلة واحترام فائق للمكانة السامية التي يتمتع بها الرجال الذين يتوقونه سنّاً والذين يعرفون جميع الشعائر الغامضة ويلمّون بها — مما يساعد على ذلك ، جهل الصبيان الكلي بما خبىء لهم ، وشعور الواحد منهم بأن شيئاً غير عادي سيقع له ، وهو شيء ذو طبيعة غامضة .

وبعد أربعة أيام ، يُحمل الصبي إلى مكان معين معدّ له بالقرب من مكان المراسم الخاص ، ويوضع تحت رقابة شديدة . ويظلّ في الأيام الأربعة التي تلي ذلك بمعزل تام عن الناس ، باستثناء بعض فترات معينة يؤتى به فيها ليشاهد للمرة الأولى في حياته أنواعاً مهيبة من الطقوس ، تصوِّر له الحيوانات الطوطميّة وأسلاف القبيلة على الصور التي يُظنّ انهم ظهروا فيها وتصرّفوا بها في حياتهم . ويستعينون على تصوير ذلك بالرقص والغناء والتمثيل والايماء . ومن صباح اليوم التاسع إلى مسائه ، تزيد الطقوس وتتكرر وتصبح جدّ مثيرة . وفي أثناء الليل التالي يستمع الصبي — في فترات — ووجهه ملثم إلى غناء أغنية « النار » . ولدى انبلاج فجر اليوم التالي يدهن جسمه بالألوان ثانية ويشاهد بعض الطقوس ويصغي إلى صرخات وأغانٍ طوال النهار . وبعد الغسق توقد نار كبيرة ، ويزمجر رجال القبيلة كالثيران ، وتدوي صرخاتهم تشق عنان السماء وتعم الآذان — ويحسب الأطفال والنساء أن هذه الأصوات صادرة عن روح هائل جاء ليخطف الصبيّ ويهرب به في الغابة . وفي أثناء ذلك تجري عملية مؤلمة بوساطة سكينة صغيرة من حجر الصوان ، ويهتاً الصبي عقب ذلك لأنه لم يصرخ أو يتوجع ، ثم يطلع على بعض الأسرار الرمزية التي يعتقد انها تعجّل ببرئه من جراحه ، وهي أسرار ينبغي عليه أن يحرص عليها ولا ينساها لئلا تنزل به وبأفراد عائلته عقوبة الموت .

وحين ينتهي من إجراء هذا التدشين يستلقي الصبي تحت إشراف دقيق ، ويمنح وقتاً كافياً يتيح للجرح أن يبرأ بتفاوت بين خمسة أسابيع وستة . وعليه بعد ذلك أن يجتاز دور التدشين الثالث وينتهي عادةً بعملية مؤلمة أخرى يطلق عليها «التشريط»[1] . ويصحب هذا الدور كذلك شعائر كثيرة الزخرف تكشف للصبي عن الحكم والتقاليد السرية للقبيلة . أما البنات ، فهن يجزن في طور مماثل نوعاً ما ، غير أنه أبسط منه . والغرض من هذا تأكيد النمو الجسدي للفتاة وإطلاعها على حكم القبيلة وتقاليدها السرية ، لأنها تكون قد ارتقت إلى مرتبة المرأة المكتملة النضوج .

وبعد بضع سنوات من إجراء هذا التدشين — ويكون الصبي قد شب وتخطى العقد الثالث من عمره (من ٢٥ الى ٣٠ سنة) — يؤدي مراسم التدشين الأخيرة ، وهي أغنى المراسم بالزخرف والزينة ، ويطلقون عليها اسم « انجورا »[2] أي النار ، لأنها تنتهي بأن يحمل الشاب على النوم أربع دفائق أو خمساً على فروع خضر من فروع الشجر موضوعة فوق جمر ساخن متوهج . وتستغرق هذه المراسم شهوراً . ويقول السائحان سبنسر وجلين ان المراسم التي شهداها استغرقت من منتصف شهر سبتمبر الى منتصف يناير من العام التالي . وفي هذه الفترة يجتمع الرجال والنساء من جميع أرجاء القبيلة ومن القبائل النائية ، وتجري كل يوم مراسم مختلفة يتفاوت عددها من اثنين إلى ستة تصحبها زخارف وزينات كثيرة . ويجتمع كبار رجال القبيلة في هيئة مجلس أو مؤتمر ، ويكررون حكم القبيلة وتقاليدها ويناقشونها حتى تُطبع ولا تنسى ، ويكون ذلك على مسمع من الشبان الذين يدشنون . ثم يخرج كبار رجال القبيلة الأشياء والمواد المقدسة[3] ويفحصونها . وبعد ما يمر الشاب في هذا الطور يقال إنه أصبح « أولبارا »[4] أي عضواً كاملاً في القبيلة واقفاً على دقائقها ، ويقول الوطنيون أنفسهم أن لهذه المراسم تأثيراً كبيراً في تقوية الذين يمارسونها ، فهي تغرس فيهم روح الشجاعة والحكمة ، وتجعل الرجال لطفاء في معاملتهم ، مُعرضين عن الشجار والقتال . وبديهي أن الهدف الرئيسي لهذه الفريضة هو : أولاً : إذعان الشبان لإشراف كبار السن وقيادتهم حتى يصدعوا بأوامرهم .

---

(١) Sub - incision

(٢) Churinga (٣) Ewgwra (٤) Uliara

ثانياً : تدريبهم على ضبط النفس ومراجهة الصعاب .

ثالثاً : اطلاع الاحداث الذين بلغوا سن البلوغ على الأسرار المقدسة للقبيلة ، وهي الخاصة بالأشياء المقدسة والطوطم الذي ترتبط به القبيلة .

وينتمي كل مواطن في أستراليا الى طوطم ، أي الى حيوان أو نبات . أي ان المواطن (أو المواطنة) مرتبط بطريقة غامضة بنباتٍ معين أو بحيوان معين . والحق أن الفطريين لا يعرفون بالضبط نوع هذه العلاقة بينهم وبين النبات أو الحيوان ، وهم — لأنهم جُلْفٌ متخلفون — لا يشعرون كما يشعر المتمدينون بحاجتهم الى تفسير كل شيء تفسيراً منطقيًّا يقبله العقل . فهم يقولون عن هذا الرجل مثلاً أنه « نعامة » ، أو « كنغر » ، أو أنه ليس « بحملية » ... الخ ، وهذا في عرفهم هو ختام الأمر كله ، ولا مدعاة للاستطراد وتختلف التفسيرات — إذا أمكن — اختلافاً بيناً بين القبائل الاسترالية المختلفة وبين الأجناس البدائية الأخرى في جميع أرجاء العالم . فتعتقد قبيلة « الأرنتا » مثلاً أن في كل فردٍ من أفرادها روحاً تناسخت ، إما عن أحد أسلافه من نفس « الطوطم » مباشرةً ، أو من روح حيوان « الطوطم » ذاته بمعنى أن الروح الكائنة في رجل ما ، إما أن تكون روح أبيه أو جدّه أو سواهما ممن كانوا ينتمون الى « الطوطم » الذي يدين به ، أو أن تكون روح الحيوان الطوطمي .

ولما كان المرء مرتبطاً بعلاقة غامضة مع « طوطمه » وجب ألاّ يأكل هذا الحيوان أو النبات إلاّ في حالات نادرة تقتضيها المراسيم . وهذه الوحدة أو العلاقة تعدّ المرء بالقوّة التي بها يستطيع أن يزيد إنتاج النباتات أو الحيوانات الطوطمية لمصلحة أفراد الطوطم الأخرى . ويستدعي تحقيق هذه الغاية مباشرة بعض الطقوس الطوطمية . وفي بعض المراسم المعروفة باسم « إينتشوما » يأكل المشتركون في هذه المراسم الطعام الطوطمي المقدس على الرغم من تحريم أكله في الأوقات الأخرى ، كنوعٍ من عمر الذبائح . وتلجأ قبيلة « الأرنتا » إلى أكل الطعام الطوطمي في حفلات عامة يشترك فيها جميع أفراد القبيلة كضربٍ من المشاركة . وذلك لتأكيد رغبة لا يمكن تحقيقها بالوسائل البشرية العادية . غير ان أكل الطعام الطوطمي ليس مما يمارسه بعض القبائل الأسترالية في المراسم ، كما أنها لا تزيد شيئاً على التفصيلات الأخرى الخاصة بالطقوس

لماذا تعد الحفلات الاسترالية دينية

وإذا نحن تدبرنا هذه الحفلات الاسترالية الآن رأينا فيها بعض مميزات الأديان السامية . فعند ما يعتنق الشاب اليهودي ديانته ، أو عند ما يعترف المسيحي للمرة الأولى بمسيحيته ويتقدم الى « الشركة المقدسة » وينضم الى الكنيسة ، أو حينما يتلقى الصبي البوذي التعليمات الدينية الأولى ويقسم القسم المثلث المقدس وهو : « أحتمي ببوذا ، وأحتمي بتعاليمه ، وأحتمي في الاخوة » — نسأل ما شأن هذه الأعمال من الناحيتين الاجتماعية والشخصية ؟ إن هذه الشعائر بالنسبة للحدث اليهودي أو البوذي أو المسيحي معناها توسيع أفق حياته وزيادة قيمتها . انها تعمق فيه وتوسع أمامه وتعزز فيه الآراء والمثل التي تعلمها أولاً عند ركبتي أمه والتي ظلت منذ ذلك الوقت مطبوعة فيه بوساطة سلوك الذين يكبرونه سناً وبآرائهم . وتصبح جميع فروض العبادة التي كانت تبدو أمامه ظاهرية حتى الآن ، لا يرى الا مظاهرها الخارجية — تصبح ذات شأن أعلى وأكمل .

فلأول مرة يسمى إدراكه العقلي جديداً ، ويصبح تصرفه التأثري تجاهها شخصياً قلبياً . فيضع اليهودي قانون موسى ومحبة يهوه في سويداء قلبه وعقله، وتصبح القواعد الثاني للسلوك عند البوذي ، خارطة الحياة وبوصلتها ، ويعتمد المسيحي على المسيح ويكرس حياته لخدمته .

ويبدو أن حفلات التدشين تحقق للسود الاستراليين أعمالاً مماثلة، فمن الناحية الاجتماعية تصون الحفلات لهم ما يقدسونه ويعتزون به من ماضيهم ، ثم تنقله الى الجيل التالي . ومن الناحية الفردية تؤكد أن الذين دُشنوا ، تلقوا هذه الأمور بالإطار العقلي الملائم ، واتصفوا بالهيبة والتواضع المقرونين بالغبطة والنشوة العاطفية الشديدة . وإن قيم الأديان السامية لتفضلها أخلاقية وروحية . كما أن هناك وسائل أكثر نقاء من وسائل التعذيب البدني ، والالحاح في السرية والغموض ، وهي تستخدم لتقود الشاب المدشن الى توقير المبادىء المقدسة وجعلها أساساً لحياته . واذا راعينا الفارق في مستوى الرقي أمكن أن نقول ان تلك الحفلات الاسترالية تقابل شعائر الأديان السامية . ولنستطيع بذلك أن نقرر أن لقطان استراليا الجُلُف ديناً .

وديع فلسطين